(الفصل السادس)

الشعر الحر

استطاع الاتجاه الرومانتيكي متمثلاً بشعراء الديوان وشعراء أبولو وشعراء المجهر أن يعكس صورة القلق التي عصفت بالأمة العربية خلال النصف الأول من هذا القرن، وذلك بما جسده من أحلام وعواطف، وما عكسه من آمال وطموحات. لكنها كانت آمالاً تُداعب قلوب الشعراء وتدغدغ مشاعرهم، وتسبح في عوالم بعيدة، محاولة أن تقنعهم بجدوى مواقفهم التي تعتمد الأحلام والرؤى. بعيدة عن الواقع الذي يصدم وجودهم، ولا يحقق لهم شيئاً مِمّا سعوا إلى تحقيقه.

وقد استفزت نتائج الحرب العظمى الثانية جهود الشعراء، واستنفرت مشاعرهم، لينظروا نظرة واقعية إلى أُمتهم، فيجعلوا للشعر ولوظيفته الاجتماعية، وسيلة لتجاوز تلك الصورة التي استغرقت من حياة أُمتهم خمسين سنة أو يزيد.

وتحتم على الشاعر منذ نهاية هذه الحرب أنْ يجعل من الشعر رسالة اجتماعية وحضارية يستجيب لها في ظل ما تغير من القصيدة شكلاً ومضموناً، خصوصاً بعدَ أن اشتدّت الصلة بيننا وبين الغرب، وتأثرنا وأعجبنا بشعرائه ونقاده، الذين كانوا قد سبقونا أشواطاً بعيدة.

واستجابة لكل العوامل الحضارية والفكرية والفنية ولدت القصيدة الحرّة لتصبح ظاهرة على يد نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وتتجسّد في موضوعاتها وأفكارها اتجاهاً واقعياً يبتعد بها عن تلك الأفكار التي صاغ بها الشعراء عالمهم المنشود، وبنوا بها

قصورهم في الأبراج العاجية .

وصارت القصيدة الحديثة ، تستمد موضوعاتها من مشاكل الإنسان المعاصر ، وما يعصف به من ويلات ، وما يفكر به من تغيير نحو حياة أفضل.

النشأة والأسباب والمصطلح :

إذا كانت قصيدة (الكوليرا) لنازك الملائكة التي كُتبت في نهاية عام ١٩٤٧، وقصيدة السياب (هل كان حباً) التي نظمت بعدّ ذلك بقليل ، تُمثل أولى محاولات الشعراء العراقيين بعدّ الحرب الثانية والتي تحقق بفضلها انتشار ظاهرة الشعر الحر هذه ، فإن هاتين القصيدتين وما تلاهما من قصائد لشعراء آخرين ، قد سبقت بمحاولات فردية لا يُمكن التقليل من شأنها ، على الرغم من أنها لم تحقق ظاهرة فنية عامة كالتي حققها الشعراء العراقيون .

من ذلك الشعر المرسل الذي نظمه رزق الله حسون عام ١٨٩٦، وأحياه جميل صدقي الزهاوي عام ١٩٠٥، وكان أمين الريحاني قد نظم شعراً منثوراً في السنة نفسها[1] والواقع أن محاولات الكثيرين ممن خرجوا على وزن القصيدة العمودية ، قد اختلفت من شاعر لآخر ، ولكنها على أنها كانت محاولات كثيرة ، إلا أنها لم تكن من صميم القصيدة الحرة التي تعتمد التفعيلة ، وإذا اقترب بعضها من هذا الشكل ، فقد كان محاولة فردية لا تمثل ظاهرة فنية ، كالتي بدأها كل من نازك والسياب وصارت ظاهرة متميزة سرعان ما أقدم على النظم بها معظم شعراء العصر .

ومن هذه المحاولات الأولى . ما جاء عفوياً غير مقصود . أو ما جاء مقصوداً ولكن توقف.. لقد ترجم المازني ترجمة حرة بعض قصائد الانكليز ، واستخدم خليل مطران بحوراً مختلفة في قصيدته (نفحة الزهر) عام ١٩٠٥ .

وكان أحمد زكي أبو شادي ما أكثر شعرائنا المحدثين جرأة في تجربة الأشكال

---

(١) ينظر : حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي

الشعرية وربما كان لتأثره ببعض الشعراء الانكليز ، دور في هذا الاندفاع إلى النظم بهذه الأشكال ولم يقتصر في محاولاته على تجربة الموشح والأشكال المقطوعية الأخرى ، بما في ذلك السوناتا الانكليزية ، ولكنه جرّب ذلك الشعر المرسل والشعر الحر الانكليزي ، وربما كان أبو شادي قد هدف في محاولاته تلك ، أن يحقق في قصائده أسلوباً جديداً يتسم بالبساطة ، وخلق موسيقى وإيقاع جديدين . ومن هنا كانت دعوته وبحثه عن شكل جديد يتيح له حرية أوسع في استخدام الإمكانات العروضية والسماح بحرية التعبير[1] وقد شجّع اندفاع أبي شادي ، وهو زعيم جماعة أبولو ـ العديد من شعراء هذه الجماعة ليحققوا ما حققه زعيمهم في ذلك . وكان من أكثر الشعراء المحدثين تحقيقاً لهذا الشكل في قصائده . فقد نظم خمس قصائد فيما بين عامي ١٩٢٦ـ ١٩٢٧ ، ولكن الذي يؤسف له توقفه عن الاستمرار عن تلك المحاولات .

وقد كان لمحاولاته في كتابة الشعر الحر ، أثر في العديد من جماعة أبولو بوصفه زعيماً لهذه الجماعة ، كما أنه وصف نفسه (بأول شاعر كتب الشعر الحرفي العربية)[2] .

وقد مارس شوقي هذا النظم في بعض مسرحياته الشعرية ، ونظم خليل شيبوب العديد من قصائده على هذه الطريقة ، واستخدام في مقدمة قصيدته (الشراء) مصطلح (الشعر المطلق) مرادفاً للشعر الحر ، وفرّق بينه وبين الشعر المنثور الذي لا وزن له ولا قافية، وربما أرخت أولى قصائده الحرة سنة (١٩٢١)[3] .

ثم عاود خليل شيبوب بعدّ ذلك تجربته في عام ١٩٣٤ في قصيدته (الحديقة الميتة والقصر الباكي) .

وقد تابع العديد من الشعراء نظم قصائدهم على هذه الطريقة ، ومن هؤلاء خليل مطران في قصيدته (نفحة الأزهار) عام ١٩٠٨ أو نسيب عريضة في قصيدته (النعامة)

---

(١) المرجع السابق / ٧٤.

(٢) نفسه / ١٠٢

(٣) نفسه / ١٠٨.

(نازك الملائكة)

الأسرة والبيئة والثقافة :

تهدف هذه السطور إلى الكشف عن العوامل التي أثرت في شعر نازك وفي شاعريتها وفي ثقافتها النقدية ، إيماناً منا بأن النشاط الأدبي ، كغيره هو وليد مجموعة من العوامل والمؤثرات ، إضافةً إلى ما تمتلكه شخصيته من إمكانات وقدرات تميزه من غيره من الناس .

وعلى هذا قام النقد الرومانتيكي الفرنسي ممثلاً بمدام دستال وسانت بيف وتين ورينان ، وحيث إننا نهدف إلى دراسة نازك دراسة مُفصلة لنصل إلى فهم صحيح لشعرها؟ فإننا سنكتفي بالوقوف على العوامل التي أنضجت تجربتها الشعريّة وعمّقت قدراتها الفنية ، وأثرت في مسيرتها في طريق الشعر الحر على الخصوص .

ولعلّ أولى العوامل المؤثرة في نشاطها الأدبي والشعري ، نشأتها في أُسرة تُعنى بالأدب عناية فائقة ، وهي أُسرة شاعرة ، كان من شعرائها أبوها صادق الملائكة وخالاها جميل الملائكة وعبد الصاحب الملائكة . وقد سبق هؤلاء كلهم والد جدتها (محمد حسن كبة) إذ كان واحداً من شعراء القرن التاسع عشر وكان حجة في الفقه الإسلامي . وأمها سليمة عبد الرزاق والتي عُرفت بين أفراد أُسرتها (بسلمى) والتي كانت توقع قصائدها بأم نزار.

وكانت أُختاها سُعاد واحسان تُعنيان بالأدب والثقافة وتمارسان الكتابة .

ويبدوا أن شاعرتنا قد فادت من ثقافة والدها في اللغة والنحو ، وعلى يديه درست النحو - كما تقول - وقد ظهر أثر ذلك في نقدها اللغوي .

أما أمها قد كانت من أشد الناس تأثيراً في حياتها الشعرية والنفسية ، فقد كانت الشاعرة الصغيرة تجلس إليها لتستمع إلى ما تحفظه من الشعر العربي . وكانت تعرض عليها قصائدها المبكرة ، فتبدي لها أمها رأيها فيها .

الشعر :

أصدرت نازك الملائكة خلال مسيرتها الشعرية ثماني مجموعات شعرية هي على التوالي : عاشقة الليل ١٩٤٧. شظايا ورماد ١٩٤٩. قرارة الموجة ١٩٥٧، شجرة القمر ١٩٦٨، مأساة الحياة وأغنية للإنسان ١٩٧٠، يغير ألوانه البحر ١٩٧٧، للصلاة والثورة ١٩٧٨، ودواوينها ـ عاشقة الليل . يُمثل شعرها المجموع ما بين ١٩٤١ ـ ١٩٤٦، وهذا معناه أن مسيرتها الشعرية إلى آخر مجموعاتها ، قد استغرق منها حوالي أربعين عاماً .

ومعظم الذين تحدثوا عن شعرها قد أكدوا على النغم الحزين الذي يجعل منه ظاهرة من أبرز ظواهره ، فقد أشار إلى ذلك العديد من الدارسين ومنهم أخت الشاعرة احسان الملائكة وبدوي طبانة وابراهيم السامرائي وأحمد أبو السعد وجليل كمال الدين وسلمان هادي طعمة وماجد أحمد السامرائي ومحمد مصطفى هدارة والطاهر أحمد مكي واحسان النص وعبد الله أحمد المهنا وجابر عصفور وسالم الحمداني ، وغيرهم .

ولهذا الاجماع دلالة في رصد التيار الذي يسود شعر نازك ، وهو تيار يستقي مادته من روافد كثيرة اجتماعية وفكرية وثقافية ، كما يستقيه من تجارب الشاعرة نفسها.

وربما يدرك الدارس سبب تأكيدنا لهذه الناحية ، لأن شعر نازك كله تقريباً وعلى مدى أربعين عاماً تلوّن بهذا اللون الرومانتيكي ، على الرغم من أن مواقف الشاعرة ـ كما ذكرنا ـ بدأت تتخذ منعطفاً تفاؤلياً بدا واضحاً منذ نشرت مجموعتها (يُغير ألوانه البحر) و(للصلات وللثورة) .

والذي نريد أن نقرره هو أن معظم تجارب نازك قد استقتها الشاعرة من حياتها الطويلة الممتلئة بالأحداث ، ومن حياة المجتمع البشري ، وما يتصل بهذه الحياة من أسرار الكون وألغاز الطبيعة وغيرها .

وموقف نازك في كل هذه التجارب موقف واعٍ يمتلك العمق والصدق ، وحيث أنها ـ كما رأينا ـ كانت شاعرة مفرطة في الحساسية ، رقيقة الشعور ، لذلك تلوّنت أفكارها الشعرية بالألوان المعتمة ، فتلفعت بالسواد ، وسادها نغم حزين أنتهى إلى موقف سلبي

عندما يرى كلّ شيء في الحياة على غير ما يتمناه ويحلم به .

ومن هنا فقد صدرت في معظم تجاربها وفقاً لهذا الموقف .

وموضوع القصيدة لدى نازك ـ هو الإنسان ـ وما يتصل به ـ كما ذكرنا ـ ولذلك لم يخرج هذا الموضوع عن محوره ، بل صار مركزاً له .

والجدير بالذكر أن العناية بالإنسان ـ في موضوع القصيدة الحديثة ـ كان قد سبق إليه من قبل نازك شعراء المهجر وجماعة الديوان وجماعة أبولو ، ولا شك أن شاعرتنا قد تأثرت ، حين قرأت لهؤلاء الشعراء ، بموضوع القصيدة كما أنها أُعجبت بمجموعة منهم ـ كما ذكرنا ـ وربما أشارت نازك في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) إلى إيثار المضمون في الشعر الحر . ولذلك كانت عنايتها بهذا المضمون الإنساني الخاص ، أسوة بمن سبقها من الشعراء ، وتعبيراً عن نظرتها الإنسانية الخاصة تجاه الإنسان .

ومن هنا كان تأكيد الشاعرة على موضوعات الإنسان في حدود موته وغربته وما عمل بذلك من أسرار الطبيعة والكون وغيرها .

ولقد أحتل الإنسان في شعر نازك قدراً كبيراً من رعايتها واهتمامها مايدل على أنها تضع الإنسان وحريته وحقوقه فوق كل اعتبار .

ولقد وضعت الشاعرة في تصورها عالماً مثالياً للمجتمع البشري يسوده الحب وينعم فيه الإنسان بالسعادة وتذوب فيه أحقاد البشر . ومن أجل ذلك تصورت عالماً مليئاً بالعدل طافحاً بالقيم زاخراً بالمُثُل . وأطلقت على هذا العالم (اليوتوبيا) .

ولذلك تألمت حين رأت هذا الإنسان يصرعه الظلم ويقتله الجوع والعري ، فبكت لشقائه وتألمت لبؤسه فقالت :

حدثونا عن رخاء ناعم ... فوجدنا دربنا جوعاً وعريا

وسمعنا عن نقاء وشذى ... فرأينا حولنا قبحاً وخزيا

ورتعنا في شتاء قاتل ... وكفانا بؤسنا شبعا وريا

وعرينا وكسونا غيرنا ... وكسبنا القيد والدمع السخين
وزرعنا وحصدنا زرعنا ... وجنينا ظلمة الدهر العنيد

ولقد امتلكت قصائد الشاعرة ، الدقة في رصد الواقع الإنساني ، وجاء تكرار النضح والعمق بما يدل على حسها الإنساني الذي لا يعرف النظرة الضيقة ، فهي تقول (فقد كنت أحبُّ السلام والمودّة والصداقة والعواطف الإنسانية - وحين لا ذلك أخيب وأحزن أشد الحزن وأحس أن مُثلي العُليا تتحطم على صخرة واقع قاس يرحم)[1] . وفي النص التالي ما يؤكد هذا الإحساس فهي تقول :

لنكن أصدقاء
نحن والعزل المتعبون
نحن والأشقياء
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخون بلا جدوى
نحن والأسرى
نحن والأمم الأخرى
في بلاد الزنوج
في الصحارى وفي كل أرض تضم البشر

✿ ✿ ✿

ومن المضامين الجديدة التي تضمنها الشعر الحديث ، مسألة الحياة والموت. وإذا كان الموت في حقيقته شيئاً مخيفاً - ولاشك في ذلك - فإن شاعرنا المعاصر فلسف ظاهرته في ظل مواجهته للحياة التي أتعبته وأهانته واستلبت كرامته ، إذ لم تر الحياة المعاصرة أن تعترف للإنسان بقيمته وكرامته وحريته . لما يسودها من قوانين

(١) من رسالة خطية للشاعرة .

الليل ، شظايا ورماد ، قرارة الموجة . وهذا الطلب لا يخلو من دلالات نفسية ألمحنا اليها .

ويبدو أن تجارب الشاعرة في الحب قد ارتبطت بالماضي وقسوته وصفوه الشاعرة . ولذلك فإن الزمن الماضي قد لعب دوراً واضاً في تجارب حب نازك ارتبط بظاهرة التكرار التي أولتها الشاعرة عناية فائقة في نقدها ، والتي تمثل لديها خاصة كما نرى .

ولذلك نجد لفظة (عد) تتكرر في إحدى قصائدها عن الحب ، حيث تقول:

عـد ، لـم يـزل قلبـي نشيـداً حالـماً ... يـشـدو بـحـبـك لحـنه المفتـ
عـد ، فالكآبـة أغـرقـت بـظلامهـا ... روحـي ، فـلـيـلـي أدمُـع وشـجـ
عـد ، لا تـدع نفسي يُعذبها الأسـى ... ويغـص فـيهـا خـافـقٍ محـزـ
عـد ، فالـحـياة أو رجعـت أشـعـة ... ومـشـاعـر سـحـرية وفـ

فتكرار لفظة (عد) هنا له دلالة قرتبط بالماضي والماضي عندّ نازك يتصارع الواقع ، والحاضر في حقيقته ثقيل قاس .

وقد تكررت كلمة (مرّ عامٌ) في عدّة قصائد تكراراً ملحوظاً في موضوع الحب ، ولا يتسع المجال للكلام عليه هنا[1] .

ومثلما أرتبط الحب بالزمن الماضي فقد أرتبط بسواد الليل وجفاف الأرض عدّة قصائد ، وكذلك أرتبط بالأحلام والأيام الخوالي ، وساده نغم حزين وألم دفين وعبرّت عنه الشاعرة بما يوحي إلى عمق الإحساس وحرارة التجربة وصدق الموقف تركت تجارب الحب لدى الشعراء الرومانتيكيين ، آثاراً نفسية متميزة ، انتهت في الأحيان إلى الملل من الحياة ، والشعور بالخيبة والمرارة ، وكان من آثارها الشعور

(١) أنظر: ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة / ٥٥ ـ ٥٦.